

الأدب وتطوره

المؤلف: الأستاذ أحمد محمد الحوفي

للمدرس بكلية دار العلوم

معناه في الجاهلية وصدر الإسلام . اشتقاق الكلمة . دلالتها الخلقية . مناقشة آراء في اشتقاق المعنى الخلقى .

معناه في العصر الأموي . دلالاته الثقافية . اشتقاق المعنى الجديد .

معناه في العصر العباسي الأول . اتساع الدلالة الثقافية .

معناه في العصر العباسي الثاني . ضيق الدائرة الثقافية .

دلالة أخرى للكلمة أحيانا في العصر العباسي .

— ١ —

دلت كلمة الأدب في العصر الجاهلي على الدعاء للآدبة ، فالآدب هو الداعي إلى المآدب ، قال طرفة :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر
ثم توسعوا في معناها فاشتقوا منها الآدب بمعنى الأخلاق السكرية
والسجاياء النبيلة ، لأنه يأدب الناس إلى الحماد ، وينهاهم عن المقابح ، وبين
المعنيين صلة وثيقة ، لأن العرب يحبون في بادية مقفرة شحيحة بالزاد ،
فتمدحوا بالقرى ، وبالغوا في الحفاوة بالضيف حتى تحرق فيها بعضهم ،
فكان من الطبيعي أن ينتقلوا من معنى الآدب الحسى المادى إلى ذلك المعنى
النفسى الخلقى .

ولسنا نستطيع أن نجد الوقت الذى نشأ فيه هذا التجوز ، وإن كنا
نجد في العصر الجاهلي نصوصا تدل عليه ، منها قول عتبة بن ربيعة لابنته هند

يصف لها خاطبها - وكان أبا سفيان ولم يسمه أبوها « يؤدب أهله ولا يؤدبونه ، وردها عليه « وإنى لأخذنه بأدب البعد مع لزوم قبتي . وقلة تلفتي ، (١)

وفي جمهرة الأمثال لأن هلال العسكري في كلامه على المثل « ويل للشجي من الخلى » قوله : « المثل لا كشم بن صيفي ، وذلك أنه ذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتب إليه كتابا جاء في رد المصطفى عليه قوله : « بأدابه المرسلين ، ولعل أصل الجملة أدب أو بعث بأدابه المرسلين (٢)

وقد سائر الكلمة مدلولها الخلق إلى صدر الإسلام ، ومنه الحديث الشريف « أدبني ربي فأحسن تأديبي ، وقول النبي عليه الصلاة والسلام « القرآن مأدبة الله في الأرض ، (٣) وقول سيدنا عمر لابنه : « يا بني أنسب نفسك تصل رحمك ، واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك ، وقول علي رضي الله عنه : « وأدبتكم بسوطي فلم تستقيموا ، وحدوتكم بالزواج فلم تستوسقوا ، (٤) وقوله : « قد لبس للحكمة جنتها ، وأخذها بجميع أدبها من الإقبال عليها ، والمجرقة بها ، والتفرغ لها (٥) وقول حجر بن عدى الشهيد للإمام علي « يا أمير المؤمنين نقبل عظمتك ، ونتأدب بأدبك ،

ولكن بعض الباحثين لم يطمئنوا إلى اشتقاق الكلمة من الأدب بمعنى الدعاء إلى المآدب ، وعرضوا آراء لا نقرهم عليها .

فالمستشرق الإيطالي الأستاذ نلينو يشتهبها من الأدب بمعنى العادة ، ويرى أن كلمة دأب جمعت على أدآب ثم قلب الجمع إلى آداب كما جمعت بر ورثم على أبار وأرآم ثم قلبت إلى آبار وآرام ، واشتقت كلمة أدب من الجمع آداب وهذا فرض ، وتكلف لا نقره .

(١) الامالي ج ٢ ص ١٠٤ (٢) جمهرة الامثال ص ٢٠٣ ذبقة عجمي ، وبينهما وبين

الطبعة التي على هامش أمثال الميداني فروق (٣) لسان العرب مادة أدب (٤) شرح ابن أبي الحديد للشيخ البلاغة ج ٢ ص ٣٦ « تستوسقوا : تجتمعوا (٥) المصدر السابق ج ٣ ص ٣٥

١ - لأن آبار وآرام لم يشتق منهما مفردان تكون الصلة بينهما وبين بُر ورَّم كالصلة بين أدب ودأب في الحروف والمعنى .

٢ - لم يذكر شبيها لهذا الاشتقاق في اسم معنى قدمت عينه على فائه في الجمع ثم اشتق منه فعل جديد .

٣ - لم يرد في معجم أو نص أن جمعت كلمة الدأب أو الدأب على أدأب ، ولكن ورد في كتب اللغة جمع بُر على آبار وآبار ، وجمع رَّم على آرام وآرام .

٤ - لم يرد الدأب بمعنى الأدب ، لأن الدأب العادة والشأن والاستمرار حسنا أو قبيحا والأدب خلق كريم في أول معانيه .

والدكتور طه حسين يحار في الاهتمام إلى مصدر الكلمة ولا يرتضى رأيا من الآراء بعد أن مال إلى رأى الأستاذ نليو ودان به ، يفترض أنها من لغة قبيلة عربية قديمة ، ولكن النصوص المثبتة لمعناها الاصيل ضاعت . وهذا رأى يعتمد على هدم البناء بمول من الخيال والفرض لا يبنى ولا يهدم . والأستاذ مصطفى جواد يرى أنها مشتقة من الهذب وقلبت الهاء همزا كما في هيا وأيا وهراق وأراق ، ويضعفه أن الكلمة لم تستعمل مرة على هذا الاصل لا فعلا ولا اسما .

ويرى الأب أنستاس الكرملي أن الأب ، صفة الأديب الواردة في اللغة اليونانية باللفظ والمعنى ، فمن معاني الأديب عندهم الحسن الغناء اللذيذ المحادثة والمنادمة والمجالسة ، المثير لهوى جلسائه بأنغامه المشجية وحديثه الريق .^(١) لكن هذا الرأى محتاج إلى دليل ، ومفتقر إلى إثبات أن العرب أخذوه من اليونان .

ويذهب الأستاذ أحمد حسن الزيات إلى أن (أدب) معناها الإنسان في لغة السومريين الذين عمروا جنوبي العراق في فجر التاريخ ، وبما لا مساع للشك

(١) المتكطف مارس سنة ١٩٣٣ ص ٣٢٢ مقال للأستاذ مصطفى جواد .

فيه أن قبائل سامية نزحت من الجزيرة العربية إلى أراضهم حوالي القرن الثلاثين قبل الميلاد ، ففزتهم وأخضعتهم ، واقتبست من لسانهم وأديانهم وعمرانهم ، فلماذا لا ننظر أن هذه الكلمة السومرية قد دخلت العربية بلفظها ومعناها ؟ ثم تحولت إلى آدم ، واستعملت كذلك في اللغات السامية ، وبقيت العربية وحدها محتفظة بالأصل لقدها وعدم اختلاطها ، ثم استعملت هذه الكلمة في الوصف استعمال المصادر ، فأرادوا بها الرجل الذي استكمل مزايا الإنسانية من حر الخلال وكرم الفعال ، وحسن السيرة ، كما نقول اليوم فلان آدمي وفلان إنسان ، ثم قلبها الزمان على وجوه الدلالات حتى صارت إلى ما صارت إليه . وما يساعد هذا الفرض قول التبريزي في شرح الحماسة :

كان الأدب اسماً لما يفعله الإنسان فيتزين به في الناس ،^(١)

ومع تقديري للاستاذ وتحريزه في عرض هذا الفرض أدفعه بأن المراد من الكلمة إذاً الرجل الكريم الأخلاق أو الممتاز بصفات ، لا الخلق الكريم نفسه ولا الصفات المميزة لبعض الناس ، وليس في اللغة أثارة تؤيد هذا المعنى أو تشير إليه ، وحتى كلمة التبريزي نفسه صريحة في أن الأدب ميزة وحلية يتزين بها الرجل في الناس ، على أن استعمال هذه الكلمة وصفاً كما تستعمل المصادر بعيد الاحتمال .

وبعد فهذه آراء تبحث عن أمومة للكلمة في غير جنسها ، وأما في اللغة العربية نفسها ، وبعضها ينصب شباكالاً لصطياد جديد ، وأقوى منه ذلكم الرأي التليد الوطيد .

- ٣ -

وفي العصر الأموي ظل هذا المعنى الخلقى الصرف حياً شائعاً ، ومنه قول سالم بن وابصة الاسدي :

إذا شئت أن تدعى كريماً مكرماً أديباً ظريفاً عاقلاً ماجداً حراً
إذا ما أتت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالاً لرلته عنراً

وقول مزاحم العقيلي في وصف الابل :

وهن يصرفن النوى بين عاجل ونجران تصريف الأديب المذلل^(١)
ومنه قول عبد الملك بن مروان لمعلم ولده : أديهم برواية شعر الأعشى ،
فانه قاتله الله ما كان أعذب بجره وأصلب صخرة .

والكن الكلمة تطورت إلى معنى آخر ، ذلكم هو الشعر والنثر وما يتصل
بهما من الشرح والأخبار والأنساب ، وهذا ضرب من الثقافة اختص بتدريسه
لأبناء الخاصة وأولياء العهد طائفة ممتازة من الأساتذة سموا المؤدبين ، ومنه
قول معاوية : اجعلوا الشعر أكثر همكم ، وأكثر آدابكم ، فان فيه مآثر
أسلافكم ومواضع إرشادكم ، وسمى الملبون بهذه الثقافة أدباء أيضا ، قال
أبو العيزار كما ذكر الجاحظ أو عبيدة بن هلال اليشكري كما ذكر المبرد في
مدح الخوارج :

أدباء إما جتتهم خطباء ضمنا كل كتيبة جرار^(٢)
على أنه كانت في العصر نفسه ثقافة أخرى لم تشملها كلمة أدب ، هي
القرآن الكريم والحديث الشريف ، وتلكم هي الثقافة الشرعية أو الدينية .
فمن أين اشتق هذا المعنى الجديد للأدب ؟

جري الباحثون على أن المعنى الجديد وليد القديم ؛ لأن المؤدبين كانوا
يتوخون من الثقافة الأدبية تهذيب الأخلاق ، ورياضة النفوس على النبالة
ولمكني أرى أن المعنى الجديد إنما جاء من الأدب وهو الأمر العجيب ، قال
الأصمعي : جاء فلان بأمر أدب أي عجيب ، وأنشد :

سمعت من صلاصل الأشكال أدباً على لباتها الحوالى
أو من الأدب وهو العجب والدهشة ، قال منظور بن حبة الاسدى :
بشمجي المشى عجول الوئب غلاية للناجيات الغلب
حتى أتى أزيها بالأدب^(٣)

(١) الأديب والمؤدب : الهميز المذلل المقاد (٢) البيان واتبيين ج ١ ص ٣٠٩

(٣) لسان العرب مادة أدب . الشمجي : الناقة السريعة . الاذي : السرعة والنشاط

فالآدب الأمر العجيب ، أو الدهشة والعجب ، والصلة بين الآدب بمعناه الفني وبين هذين الأصلين صلة وثيقة ، لأن الآدب عجيب يثير النفوس بعباراته ومعانيه وأخيلته ، وهو أيضاً نتاج عن عجب من منظر أو حادث أو شعور ، ونتاج يدعو إلى عجب القراء والسامعين ، ويعزز رأي هذا أن بعض الشعر الذى كان يدرس ويروى على أنه أدب — حافل بالمجون والغزل الفاحش والخمر كشعر طرفه وامرى القيس والاعشى ، فاشتقاق المعنى من الآدب بمعنى الأمر العجيب أو العجب والدهشة أكثر ملاءمة للآدب ومسايرة له من اشتقاقه من الآدب بمعنى الخلق الكريم .

وإذا فالآدب بمعنى الدعاء للآدابية أصل للآدب بمعنى الخلق العظيم ، والآدب بمعنى العجيب والعجب أصل لذلك الفن الجميل الرفيع من شعر ونثر

— ٣ —

وفى أواخر العصر الأموى وأوائل العباسى الأول أو فى القرن الثانى والثالث نشأت علوم اللغة العربية ، وتميزت بموضوعاتها وأسماؤها . فكان النحو والصرف واللغة ، واتسع نطاق كلمة أدب فشملت الشعر والنثر وما يتصل بهما من شرح وأخبار وأنساب ومسائل من النحو والصرف واللغة والنقد ، وألفت كتب فى الآدب بهذا المعنى مثل البيان والتبيين للجاحظ المتوفى ٥٢٠ هـ والكامل للبريد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ والشعر والشعراء وعيون الأخبار وآدب الكاتب لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ وطبقات الشعراء لابن سلام المتوفى سنة ٢٣٢ هـ وأتم تجمدون مثلاً فى كتاب الكامل شعراً ولغة وصرفاً ونحواً وتاريخاً وبلاغة ، لأنهم فهموا الآدب على أنه ثقافة عربية لغوية جامعة

ولم يكن الآدب ثقافة المسلمين الوحيدة فى ذلكم الحين ، فإنهم كانوا قد ارتقوا وتحضروا وأجادوا فهم دينهم ، وقوى اتصالهم بغيرهم ، فازدهرت ثقافتهم الدينية ، واتسعت دائرتها عما كانت عليه فى القرن الأول ، فتفرعت إلى القرآن الكريم وتفسيره وقرآياته ورسمه ، وإلى الحديث الشريف وعلوم

الحديث، وإلى الفقه وأصوله، والكلام ومذاهبه، كما ازدهرت ثقافتهم الدخيلة من منطق وفلسفة وطب وفلك . . .

ولكن الادب لم يشمل هذين الضربين من الثقافة، فهذه فلسفية وتلك دينية. على أن الدلالة الخلقية ما فتئت حية تدور على الالسنه وأسلات الاقلام، فان الجاحظ مثلاً في البيان والتبيين عقد فصولاً في الادب منها (كلام في الادب) ذكر به عدة حكم ووصايا بما يهذب الاخلاق^(١)، وذكر لابن هرمة أبياتاً في الرثاء منها بيت يمدح المرنى بالكرم وحسن أخلاق الخدم في لقاء الضيوف :

هش إذا نزل الوفود بيهابة سهل الحجاب مؤدب الخدام^(٢)
وابن المقفع سمي كتابين له في الاخلاق (الادب الكبير) و (الادب الصغير) وقد توفي سنة ١٤٢ هـ.

— ٤ —

وقد كان النقد يتدرج في نمطه وارتقائه منذ القرن الثالث، ونهض علما مستقلاً متميزاً من الادب في القرن الرابع، وسمى بلاغة حيناً وبياناً حيناً وبديعاً حيناً، وكان رواة الأدب قد قللوا من الاستطراد اللغوي والنحوي فيما يروون ويدونون، فضائق دائرة الأدب التي كانت رحبة شاملة في القرنين السابقين، وانحسر لفظ الأدباء عن العلماء، واستقل به الكتاب والشعراء، لأن العلوم استقلت فاختص بكل علم رجاله، حتى قالوا: ختم تاريخ الأدباء بـعطب والمبرد، وكانت وفاة المبرد ٢٥٨ هـ وبعطب ٩١ هـ وهم يقصدون بالأدباء هنا المهلبين بالثقافة العربية جملة، وصار الأدب يطلق على الجيد من الشعر والنثر وما يرتبط بهما من شرح ونقد، وهذا هو معناه في كل اللغات الآن :

— ٥ —

على أن هذه الكلمة دلت في العصر العباسي أحياناً على معنى أوسع من

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ١٦٦ . (٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١٥٠

ذلكم كله ، دلت على الاستنارة والمهارة النظرية والعملية ، فالفلسفة أدب ،
والصيد والشطرنج أدب ، والسياسة وخدمة الملوك أدب ، والأديب هو
المثقف المستنير اللبق ، قال الوزير الحسن بن سهل ، المتوفى ٢٣٦ هـ « الآداب
عشرة ، ثلاثة شهر جانية ، وثلاثة أنو شروانية ، وثلاثة عربية ، وواحدة
أربت عليهن ، فأما الشهر جانية فيضرب العود ولعب الشطرنج ولعب الصواجج ،
وأما الأنو شروانية فالطب والهندسة والفروسية ، وأما العربية فالشعر والنسب
وأيام الناس ، وأما الواحدة التي أربت عليهن فمقطعات الحديث والسمر
وما يتلقاه الناس بينهم في المجالس » (١)

ومن النصوص الدالة على أن الأدب هو المهارة ، وأن الأديب هو اللبق
الحسن التصرف ما أنشده ابن أبي كريمة :

ألا زعمت عفراء بالشام أني غلام جوار لا غلام حروب
وإني لأهدى بالآوانس كالدمى وإني بأطراف القنسا للعوب
وإني على ما كان من عنجبيتي ولوثة أعراييتي لأديب (٢)

وجاء في إحدى رسائل الجاحظ قوله : « إنا وجدنا الفلاسفة المتقدمين
في الحكمة ذكروا أن أصول الآداب التي يتفرع منها العلم لذوى الآلباب
أربعة : فنها النجوم وأبراجها وحسابها ، ومنها الهندسة وما اتصل بها من
المساحة والوزن والتقدير ، ومنها الكيمياء والطب وما يتشعب من ذلك ،
ومنها اللحون ومعرفة أجزائها ومخارجها وأوزانها ، فأدخل في الآداب العلوم
الرياضية وبعض العلوم الطبيعية ، متأثرا بأرسطو ، فقد سمي العلوم الرياضية
الآداب ، في تقسيمه للعلوم المأثور عنه (٣) .

وأدخل إخوان الصفا في عداد العلوم الرياضية التي سميت الآداب أحيانا :
السحر والسكينة والكيمياء وغيرها إلى جانب اللغة والشعر والرياضة (٤) .

(١) زهر الآداب ج ١ ص ١٤٢

(٢) البيان والتميين ج ١ ص ١٤٩

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ج ١ ص ٣٣٥

(٤) الرسالة السابعة ج ١

وكانوا يعتبرون معرفة النغم وعلل الأغاني من أرقى فنون الأدب ، وفيها وضع عبيد الله بن طاهر من ندماء الخليفة المعتضد بالله المتوفى ٢٨٩ هـ كتابه (الآداب الرفيعة) ، لذلك قال ابن خلدون « وكان الغناء في الصدر الأول من أجزاء الأدب لأنه تابع للشعر إذ الغناء إنما هو تلجينه ، وكان الكتاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به ، حرصاً على تحصيل أساليب الشعر وفنونه . »

وقال « يجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة من شعر على الطبقة ، وسجع متساو في الإجابة ، ومسائل من اللغة والنحو ماثلة أثناء ذلك متفرقة ، يستقرى منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية ، مع ذكر بعض من أيام العرب ، يفهم به ما يقع في أشعارهم منها ، وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة ... فالأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم والأخذ من كل علم بطرف ، »^(١)

وقد جمع أبو القاسم إسماعيل بن أحمد الشجري من شعراء القرن الرابع ضروب الأدب في قوله :

إن شئت تعلم في الآداب منزلي وأنتى قد عداني المـز والنعم
فالطرف والسيف والأوهاق تشهـل والعود والنزد والشطرنج والقلم^(٢)

أحمد محمد المحوفى

(١) المقدمة من ٤٨٨ = ٤٨٩

(٢) الأوهاق : الجبال القوية ترمى في أنشودة لتؤخذ بها الدابة والانسان ، وغرض الشاعر خرف السكندية التي ينال بها .